الأديب
حنا إبراهيم

قراءة سيميائية في عناوين أشعار حنا إبراهيم

محمد علي سعيد

سيرة حياته

ولد الشاعر والقاص والروائي والكاتب حنا إبراهيم إلياس[1] في 1- 11- 1927 في قرية البعنة في الجليل الأعلى لعائلة فلاحين متوسطة الحال ووطنية، فقد كان والده قائد فصيل في ثورة عزالدين القسام.

أنهى دراسته الابتدائية في قريته البعنة، أما الثانوية ففي عكا، ولمّا لم يجد عملا، انتسب إلى "مدرسة البوليس الفلسطيني" في بيت لحم، ولتفوقه حصل على جائزة المفتش العام، وبعد ثلاثة أشهر من تخرجه استدعته المدرسة ليعمل فيها معلما للقانون، وعندما أغلقت بسبب الأحداث، انتقل ليعمل شرطيا في مركز بوليس عكا حتى نهاية الانتداب.

عاد إلى قريته "البعنة" ليعمل مع والده في الفلاحة، وفيما بعد في المحاجر وفي البناء نهارا، وفي الاحتراف الحزبي والنشاط السياسي والاجتماعي مساء وليلا حتى عام 1961.

في أيار 1948 انتسب إلى عصبة التحرر الوطني في فلسطين (فيما بعد الحزب الشيوعي الإسرائيلي)، وفي أيلول 1948 شارك في إحضار وتوزيع المنشور الشيوعي السري[2]، الذي دعا إلى الموافقة على قرار تقسيم فلسطين إلى دولتين، ولهذا اعتقله جيش الإنقاذ واتهمه بالخيانة العظمى وهُدّد بالإعدام، اجتمعت خلية الحزب مباشرة ، وكتب حنا بخط يده منشورا يدعو الناس إلى الصمود والبقاء في بيوتهم ووطنهم مهما كانت الظروف. ولكن الجيش الإسرائيلي نجح بتهجير وطرد حوالي 80% من السكان قسرا. وصل قرية البعنة المئات من اللاجئين وأكثرهم من قرية شعب، وتقاسم أهل البعنة مع ضيوفهم اللاجئين لقمة العيش وسقف البيت.

---

[1]. الياس هو اسم العائلة وهو ينحدر من عائلة حدادين في الأردن، انظر توضيحا في مجموعة أعماله القصصية "أزهار برية" 2000 ص8.

[2]. الأحزاب الشيوعية التي وقعت على المنشور: العراق، سوريا، لبنان وعصبة التحرر الوطني في فلسطين.

في عام 1949 أقامت البعنة احتفالا بالإفراج عن الأسرى، وألقى حنا إبراهيم أول قصيدة له أمام الجماهير، ونشرت في صحيفة الاتحاد؛ فعرفته الجماهير شاعرا إلى جانب نشاطه الوطني والاجتماعي، وقد قدّمت فرقة فتيات من القرية نشيدا ومسرحية وطنية، وفيها قامت الفتيات بأدوار الرجال، وكانت خطيبته ماري إحدى الممثلات، وقد تزوج منها في 15- 5- 1949. في عام 1950 انتخب لعضوية اللجنة المركزية للشبيبة الشيوعية.

في عام 1978 انتخب رئيسا لمجلس قرية البعنة، وفي عام 1989 وفي الانتخابات الثانية رفض ترشيحه بالتزكية من سكان قريته لرئاسة المجلس المحلي.

في عام 1953 أصدر الحزب الشيوعي مجلة "الجديد" كملحق أدبي لصحيفة "الاتحاد" (التي صدرت منذ عام 1944) وكان أحد أعضاء أول هيئة تحرير للمجلة[3]، وفي عددها الأول نشر أول قصة بعنوان "متسللون".

في عام 1967 سافر إلى الاتحاد السوفياتي لدراسة الفلسفة والعلوم السياسية، فأتقن الروسية بالإضافة إلى الإنجليزية وقام بترجمة عدة قصص من الأدب الروسي ونشرها في أدبيات الحزب الشيوعي.

في عام 1969 تمّ تعيينه مديرا لمطبعة الاتحاد ومن ثم محررا في صحيفة الاتحاد، من عام 1974 حتى عام 1978، حيث استقال لخوض انتخابات السلطة المحلية في البعنة كمرشح الجبهة الحزب للرئاسة.

في عام 1989 قرر الحزب الشيوعي الإسرائيلي فصله بدون إنذاره أو محاكمته، وهو يعزو جازما بأن الأسباب تعود إلى صراحته ونقده لسلوك وسياسة قادة الحزب المحلي منذ بداية السبعينات، ورغم الفصل إلا أن حنا إبراهيم ما يزال يدافع عن النظرية الاشتراكية الماركسية اللينينية، ويرى العيب في تطبيقها وليس فيها، ويعتبر نفسه "آخر الشيوعيين الصادقين حقا".

[3]. تألفت أول هيئة تحرير لمجلة الجديد من الأدباء الرفاق: إميل توما، إميل حبيبي، توفيق زياد، جبرا نقولا، جبرا نقولا، حنا إبراهيم، حنا أبو حنت، عصام العباسي.

في عام 1980 بدأت مؤسسة الأسوار/ عكا مسيرتها الثقافية، وانتخب حنا إبراهيم بالإجماع رئيسا فخريا متطوعا لها، ومسؤولا ثقافيا فيها ومحررا في مجلتها "الأسوار"، وبقي يشغل مناصبه هذه متطوعا حتى استقال عام 2000 لظروف صحية.

في 1995 حصل على جائزة الإبداع في الأدب العربي المحلي من وزارة الثقافة والعلوم والرياضة في إسرائيل، وفي كانون أول 1995 منحه الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات وسام القدس للثقافة والفنون والآداب. وقد قلده الوسام نيابة عن الرئيس الكاتب الفلسطيني أحمد دحبور في حفل تكريم أقامته له مؤسسة الأسوار في كانون ثان 1996.

تناول الكثيرون من طلاب معاهد التعليم العالي (الكليات والجامعات) أدبه ضمن دراساتهم، وكذلك بعض النقاد[4].

ومما جاء في مقالة له ما زالت بخط يده "... وإجمالا يمكنني القول أني راض عن نفسي فقد قمت بواجبي سواء في ميدان العمل السياسي والشعبي أو المجال الأدبي ... واخترت الطريق الصعب، ودفعت الثمن غاليا: حُرمت من الوظيفة ومن حرية التنقل ثلاثين عاما واعتقلت وفرضت عليّ الإقامة الجبرية، وحين عاد ابني بعد دراسته الطب في روسيا عام 1976 لم يسمح لي باستقباله في مطار اللد بعد غياب ثماني سنوات... ومن الناحية الأخرى عُرض عليّ أن أختار الوظيفة التي أريدها بشرط الانسحاب من الحزب الشيوعي فرفضت... ولكني جوبهت بمشاكل لم تكن بالحسبان.. ومنها انزلاق غضروفي أقعدني عن العمل لدرجة عانت الأسرة الفقر حتى الجوع الحقيقي، ولولا أن والدي كان فلاحا صغيرا لأصبحنا متسولين[5]."

[4]. دكتوراه لأحمد حسن أبو بكر 2001، وماجستير لعامر جنداوي لعام 1997، وماجستير بالعبرية لعيريت جسرويس، ومجموعة معلمين عربا ويهودا في وظيفة استكمال جامعية 1988. ومن النقاد الذين تناولوا أدبه بالنقد: د. حبيب بولس، د. حسين حمزة، د. نبيه القاسم، د. محمود عباسي، د. محمود غنايم، سهيل عيساوي، محمد علوش. محمد علي سعيد، وغيرهم..

[5]. مخطوطة بخط يده (لم ينشرها بعد) باسم: وظلم ذوي القربى أشد مضاضة.

مؤلفاته[6]:

أربع مجموعات قصص قصيرة، ثلاثة دواوين شعر، ثلاث روايات وسيرة ذاتية.

- أزهار برية. (قصص) عن صحيفة الاتحاد، 1972.
- ريحة الوطن. (قصص)، عكا: دار الأسوار، 1979.
- الغربة في الوطن. (قصص)، عكا: دار الأسوار، 1981.
- صوت من الشاغور. (شعر)، عكا: دار الأسوار، 1982.
- ذكريات شاب لم يتغرب. (سيرة ذاتية)، عكا: دار الأسوار، 1988 .
- هواجس يومية. (قصص)، شفاعمرو: دار المشرق، 1989.
- نشيد للناس. (شعر)، شفاعمرو: دار المشرق، 1992
- شجرة المعرفة. (سيرة ذاتية)، عكا: دار الأسوار، 1996.
- أوجاع البلاد المقدسة. (رواية)، عكا: دار الأسوار، 1997 .
- موسى الفلسطيني. (رواية)، شفاعمرو: دار المشرق، 1998 .
- عصفورة من المغرب. (رواية).
- صرخة في واد. (قصائد جديدة ومختارات من ديوانيه السابقين)، الناصرة: دار النهضة، 2007.
- أب وابن. (قصص ترجمها للإنجليزية د. جمال أسدي) لحنا إبراهيم ولمحمد علي سعيد. نيويورك- بيتر لاند، 2009.
- حنا نقارة محامي الأرض والشعب. (إعداد)، مؤسسة الأسوار، 1986.
- ترجم عن العبرية كتابين: لروت لوفتش "اخترت طريق الكفاح". وآخر لعضو الكنيست السابقة عن الجبهة تمار جوجانسكي.

[6]. لحنا إبراهيم مجموعة قصائد تكفي لإصدار ديوان على الأقل. كما ولديه بعض القصص القصيرة تكفي لإصدار مجموعة، أيضا، بالإضافة إلى عشرات المقالات السياسية والاجتماعية والأدبية التي كتبها ونشرها، وهي كافية لإصدار أكثر من مجلد.

قراءة سيميائية في شعر حنا إبراهيم

نظم حنا إبراهيم الشعر منذ صغره، وكان يلقيه أمام صفه في الثانوية وبين أصدقائه، ولكنه ألقى أول قصيدة له أمام الجماهير في قريته البعنة عام 1949 ونشرت في الاتحاد[7]، وما يزال يلقي قصائده أمام الجماهير[8]، ولكنها اقتصرت منذ أكثر من عقد على المناسبات الاجتماعية والوطنية والسياسية غير الحزبية.

تنبع أهمية العنوان[9] من تضافر عدة عوامل مؤثرة، منها: قرار اختياره ومكان إثباته، فاختيار العنوان لا يتبناه الكاتب اعتباطا أو مصادفة، لأنه يعكس جهدا ذهنيا عميقا وجهدا بصريا أيضا (اختيار اللوحة الفنية ونوع الخط ومكانهما) ضمن عمليتي المقارنة والغربلة بين عدة اقتراحات، لأهمية ما يثيره من الانطباع الأول[10] لدى القارئ وما يترتب عليه من إغواء للقراءة أو للتسويق.

---

[7]. كان الاحتفال بمناسبة الإفراج عن الأسرى، وقد نشرت القصيدة في جريدة الحزب الشيوعي "الاتحاد" في العدد 27 من العام نفسه تحت عنوان "خلق الناس للسعادة وليس للحرب"، وللعنوان والتوقيت والمناسبة دلالة وطنية إنسانية تعكس لنا شخصية حنا إبراهيم.

[8]. ما زلت أذكره يجلس على كرسي في طرف الاجتماع ويكتب قصيدة أو يضيف إليها استعدادا لتكون مسك الختام الدائم في المهرجانات والاجتماعات وخاصة السياسية؛ فيلهب الجماهير ويحرضهم فيقفون ويصفقون طويلا، ويطالبونه بالإعادة، بصوت واحد قوي: يُعاد..

[9]. للعنوان تعريفان: الأول معجمي ننظره في المعاجم اللغوية، والثاني اصطلاحي. ولقد ارتأيت هذ التعريف لسهولته وشموليته: (... العنوان إشارة مختزلة ذات بعد إشاري سيميائي يؤسس لفضاء نصي واسع، قد يفجر ما كان هاجعا أو ساكنا في وعي أو لا وعي المتلقي من حمولة ثقافية أو فكرية يبدأ المتلقي معها فور عملية التأويل.)، بسام قطوس. سيميائية العنوان ط1. 2001.

[10]. الانطباع الأول هو نتيجة مباشرة للقاء الأول مع ما يقدمه المنجز الإبداعي، وتتداعى منه تأويلات عديدة، الانطباع الأدبي يختلف تماما عن الانطباع الفني للرسم أو النحت، ففي الأدبي يقدم نفسه بالتتابع اللغوي فيكون بناء المعنى تدريجيا وفي الفني يكون أكثر شمولية لأنه يقدم نفسه بصريا دفعة واحدة، لكثرة معطياته (جشتلاط).

أما مكان العنوان في صدارة النص (فوقه أو قبله) فيعطيه مكانة دلالية تمنحه سلطة إشراف وبالتالي شرعية تأويل في مجمل العمل الأدبي، وعليه فالعنوان نصا ومكانا يستحق الاهتمام دائما، فهو عتبة النص الأولى ومفتاحه التأويلي، وكأني به لصدارته ولنصه كالمصباح يضيء عتمة النص، فيجعلها أقل ظلمة ويضع فيها بعض شارات التوجيه للقارئ.

إن هذه العلاقة الجدلية بين طرفي المعادلة: العنوان والنص الأصلي والإثراء المتبادل بينهما؛ تجعلهما وحدة عضوية واحدة تشكّل النص بمفهومه الحداثي، وبالتالي تؤثر على عملية القراءة ومفهومها الحداثي، ففيهما تتحول عملية القراءة إلى عمليتي هدم وبناء يتنقل القارئ كبندول الساعة ذهابا وإيابا بين العنوان والنص، يهدم ما لم يعززه متن النص الأصلي من تأويلات للعنوان، ويبني ما يعززه، وبالتدريج المواكب لتتابع النص اللغوي يتراكم المعنى لنصل إلى بناء عمارة الفهم، وعمارة الفهم هذه قد تختلف من قارئ لآخر، أو للقارئ نفسه في ظروف مختلفة، لأن "النص الجيّد لا يسلّم نفسه من المعاشرة الأولى[11]"، ولهذا فالقراءة تصبح حوارا بين القارئ والنص وعمق الحوار تقرره ثقافة القارئ وجودة النص .

نتيجة هذا التوجه الحداثي في فهم الأدب؛ أصبح العنوان سمة للنص ووسما له يرتبط بقصدية الكاتب التي يريد إيصالها إلى القارئ[12] وفي الوقت نفسه يوفر له مساحة من التأويل. جعلني أنحاز لهذا التوجه في دراستي هذه، مستفيدا من طرائق أساليب التدريس في مجال التربية والتعليم، وأختار طريقة بناء القراءة[13] (قبل القراءة وأثناءها وبعدها ثم التقييم .) وهي الأكثر ملاءمة لهذا التوجه السيميائي في دراستي هذه.

---

[11] . محمد علي سعيد. مسافر في القطار. 1972 ص13.

[12]. ليس بالضرورة أبدا أن يصل القارئ إلى ما يقصده الكاتب، ولا أن تتشابه ما يصله القراء وذلك بحسب مقولة "موت الكاتب" لرولان بارت الذي ينادي بسلطة القارئ كمبدع آخر للنص، وبالمقابل فإن الناقد هيرش ينادي بسلطة الكاتب وعليه يصعب الفصل بين الكاتب والنص وعلى القارئ أن يساعد الكاتب في إيصال رسالته.

[13]. والطريقة تتكون من ثلاثة محطات أساسية وهي: أ- قبل القراءة: وهي مرحلة التأويل بالاعتماد على قراءة العنوان والنصوص الموازية إذا كانت موجودة. ب- القراءة: وهي مرحلة قراءة متن النص الأصلي، وأثناء

1- **المرحلة الأولى: ما قبل القراءة: التأويل.**

وهي مرحلة التأويل الأولى، قراءة في العنوان والنصوص الموازية للمجموعة الكاملة "صرخة في واد". في عام 2007 جمع شاعرنا مختارات من قصائده التي نشرها في ديوانيه السابقين، بالإضافة إلى قصائده الجديدة. وأصدرها في ديوان مستقل تحت عنوان واحد أسماه: "صرخة في واد". عنوان الديوان الخطي يتألف من جملة اسمية مركبة من ثلاث دوال (كلمات) فقط، وهي: (صرخة، في، واد[14]) جملة اسمية تثير أكثر من سؤال. لماذا جاء الاسمان نكرتين؟، فلا نعرف الصارخ ولا الوادي، وما سبب الصرخة؟ وما هي صفاتها ومصيرها؟

صرخة: معطى مسموع، صوت عال يصدر عادة عن إنسان (أو حيوان) يشعر بألم يعيشه شخصيا أو يعيشه الآخرون ممن يهمه أمرهم، يصرخ ولا يهمس أي يصرح بما يريده جهارة وأمام الجميع، دلالة الجرأة والإيمان بما يقوم به، يصرخ منذرا أو مبشرا وغايته الإصلاح قبل أن يحصل له ولهم سوء، فيخسرون أنفسهم ويندمون حين لا ينفع الندم. والصرخة بالإضافة إلى وظيفتها تجعل صارخها يشعر بشيء من الراحة النفسية، كما أنها تدل على أن الصارخ فيه ميزة الاستشراف وتحسس المستقبل.

القراءة تحدث عملية مقارنة سريعة فيها هدم وبناء بين تأويلات العنوان ومعطيات النص. ج- ما بعد القراءة: وهي مرحلة المقارنة المتأنية وبناء المعنى والفهم. وهي أكثر شمولية وعمق ودقة وبناء لعمارة الفهم د- التقييم: وهي مرحلة التقييم لكل عناصر النص من عنوان ونصوص موازية ونص أصلي، ومدى العلاقة بين هذه العناصر، وغير ذلك.

[14]. صرخة في واد. (2007 من إصدار النهضة في الناصرة. يقع في 276 صفحة من القطع المتوسط، يشمل على 92 قصيدة. وعلى إهداء ص4 وعلى كلمة بعنوان إيضاح ص5، يوضح فيها أسباب هذه المختارات ورسالته منها. لوحة الغلاف من تصميم دار النشر. جاء الكتاب بدون تظهير، وبدون تنويه إلى توزيع القصائد على دوانيه السابقين وهما : 1- صوت من الشاغور 1983. 2- نشيد للناس 1992. وفرزها عن قصائده الجديدة.

في: معطى ظرفي يدل على مكان، في تعني داخل المكان وليس بعيدا عنه أو إلى جانبه، مما يدل على أن الصارخ يعيش أسباب الصراخ من ألم ومعاناة.

واد: معطى مادي يدل على مكان، وهو اصطلاح في تضاريس الطبيعة، واد وليس جبلا أو سهلا، لأن الصرخة فيه تختلف عنها في تضاريس أخرى ولا تعطي دلالة الداخل، وهي في الوادي لا تصل إلا إلى نفسها فنسمعها عائدة علينا صدى قويا.

بالاعتماد على العنوان الخطي فقط، أصل إلى التأويل التالي: شاعرنا حنا إبراهيم واع لما يدور في مجتمعه وصادق مع نفسه ومستشرفا للمستقبل، ولهذا يصرخ منذرا، أو ليرتاح نفسيا بأنه نبّه وقال كلمته وبرّأ ذمته، ولكن لم يسمعه أحد بل سمع نفسه، وعندما نقرأ باقي معطيات النصوص الموازية من لوحة الغلاف والإهداء وكلمة الإيضاح، يترسخ التأويل ويصبح أكثر وضوحا.

لوحة الغلاف: وهي العنوان الفني للديوان، فهي لا تقل في تعبيرها الحاد عن رسالة العنوان الخطي، اللوحة واحدة على وجهي الغلاف، تعبر عن واد في صحراء قاحلة وتظهر آثار أقدام بشرية ذهابا وإيابا، وأثناء تداخلها تشكل أحيانا وجوها بشرية كالحة وغير واضحة، والوادي كأنه فتحة لهاوية بعيدة القاع واللون بني متماوج ومتدرج، لوحة تلمح ولا تصرح عن الواقع الآني للمكان، ولكن آثار الأقدام تدل على وجود بشر لم ينجحوا في تغيير واقع الوادي والصحراء إلى جنة أو واقع نحتمل العيش فيه.

هذا التضافر الوظيفي بين العنوانين: الخطي والفني يعززهما الإهداء، الذي يتجاهل الجيل الحاضر، "إلى جيل مضى وجيل لم يولد بعد". وكلمة "إيضاح" بدلا من مقدمة، يصرح مباشرة أسباب اختياره لعنوان ديوانه ولوحة غلافه ونص إهدائه، ومضامين شعره وأمله، (... وصحوت ذات يوم لأجد المركب في الطريق إلى الهاوية... وحين دخلت الثمانين من العمر رأيت أنه يجب عليّ تجميع ما كتبت من أشعار فوجدتها تمجيدا لطريق كُتب على أولها إلى الجنة، ولكن السائرين فيها وصلوا إلى صحراء مجدبة، وعزائي أني لم أبخل بما ملكت يدي

وكتبت عن إيمان مطلق، وما زلت آمل أن يستخلص القادة الجدد النتائج ويصححوا المسار[15]...).

إن هذه النصوص الموازية[16] لقصائد الديوان من العنوانين: الخطي والفني، والإهداء والمقدمة (الإيضاح)، تتشابه بل تتداخل جدا في رسالتها للقارئ، فترشده كثيرا في اجتهاده التأويلي.

المرحلة الأولى: ما قبل القراءة - التأويل- ب:

وفيها قراءة سيميائية/ تأويلية لعناوين القصائد وربطها مع "مهمات[17]" النص:

أ- المضمون: تنوعت المضامين من: وطنية وأممية وحزبية واجتماعية ورثائية، وفيما يلي بعض الأمثلة لكل نوع.

* مضامين أممية: لانتصار فيتنام. ليلة العيد في موسكو. في عيد المرأة العالمي. تحية محبة لباكو عاصمة أذربيجان. ويكون سلام. أمنية. رسالة إلى البيت من بودابست.

* مضامين وطنية: إضراب، وصية لاجئ، أحمد المصري، في الذكرى الخمسين لاستشهاد نوح إبراهيم، نشيد لفلسطين، شكر لياسر عرفات، القتيل مجهول الرقم محمد الدرة، عن المتاجرين بالوطنية، نشيد لفلسطين، أول أيار بعد يوم الأرض.

---

[15]. صرخة في واد، المصدر نفسه، ص5.

[16]. من المصطلحات الأخرى: النصوص المصاحبة أو مرافقات النص وتعرف بعتبات النص، وتشمل العنوان الخطي والفني والإهداء والتصدير والمقدمة والتظهير والملاحظات وكل ما هو موجود على الكتاب مطبوعا أو مرسوما ما عدا النص الأساسي أو الأصلي. ويهدف بها الكاتب إلى توجيه القارئ. (انظر د. نبيل منصر في كتابه " الخطاب الموازي للقصيدة العربية المعاصرة " 2007).

[17]. مهمات النص مصطلح أدبي يشمل أبواب النص أو عناصره الأساسية، وقد نحته منذ عقد ونيف، وعملت به كثيرا. وهو حاصل من تركيب دامج للحرف الأول من الكلمات/ المصطلحات: مضمون النص، هدف النص، مبنى النص، أسلوب النص، تقييم النص.

* مضامين اجتماعية: في حفل تدشين مدرسة البعنة. عتاب أخوي، في أكاديمية الملحنين، هل نحن شعب أم حمائل. تجديد القربى مع آل حدادين. في حفل تكريم الكاتب مصطفى مرار.
* مضامين حزبية: ردا على الحملة المسعورة ضد الشيوعيين. في الحفل الختامي للمؤتمر الـ 13 للحزب الشيوعي الإسرائيلي. قصيدة انتخابية. في مهرجان أول أيار. وكأنه عمل ناطقا شعريا للحزب.
* مضامين الرثاء: وممن رثاهم من رفاق وأصدقاء وأدباء ورجال دين وشهداء: حنا مويس. نوح إبراهيم. جورج نجيب خليل. حسن بكري. غسان حبيب. أحمد المصري. سهيل خوري. سعيد عابد. شكري الخازن. يحيى ذباح. سعيد محمود أسدي. مفيد إلياس. توفيق الريناوي. محمد الدرة.

ب- الهدف/ الرسالة: أكتوبر أقوى من عنتر، وأحيانا على بكر أخينا، أمنا الأرض، لا عودة إلى الفردوس بدون حواء.

ج- المكان: تحية محبة لباكو عاصمة أذربيجان، في حفل تدشين مدرسة البعنة، إلى عرابة مع قصب السبق، إلى سخنين مع حبي، إلى أبو سنان مع المحبة، دمشق سلاما.

د- الزمان: أول أيار بعد يوم الأرض، رسالة إلى البيت من بودابست، في مهرجان أول أيار، مرة أخرى عن أكتوبر، ليلة العيد في موسكو.

المرحلة الثانية: قراءة النصوص.

وفيها نقرأ نصوص القصائد ونقوم بعملتي الهدم والبناء نتيجة المقارنة السريعة بين تأويلات العناوين ومعطيات النصوص

المرحلة الثالثة: ما بعد القراءة: التقييم.

بعد ما وصلت إليه من بعض مضامين الديوان وأغراضه عامة ومن موقف الشاعر بالاعتماد على قراءة سيميائية للعناوين وتأويلها فقط، قرأت الديوان بتمعن، ووقفت على

العديد من مميزات شعره من حيث المبنى والمعنى والأسلوب، وفيما يلي بعض ملاحظات التقييم.

- عنوان الديوان: مستقل وليس مقتبسا عن عنوان إحدى القصائد، وهذه الاستقلالية توفر مساحة أوسع للتأويل الأشمل لجميع قصائد الديوان والتعرف على جوها العام تقريبا، وهو حالة من الإحباط، لا تخلو من التفاؤل.
- **مبنى القصائد**: جميع قصائده عمودية موزونة ومقفاة بحسب بحور الشعر، وطويلة النفس، مما يؤكد تعصبه لهذا الأسلوب ورفضه للقصيدة الحرة أو النثرية الحديثة أو القصيرة. ويقول عنه جمال قعوار "وهو في شعره يلتزم عمود الشعر في صحة الوزن والقافية وهما ما يلمس القارئ إتقانه لهما في شعره بخلاف كثير من الشعراء[18]."
- **لغة القصائد**: مفرداته فصيحة وبعضها كلاسيكية غير مألوفة، (وانداح ص62. الشانئون ص9. أبيت اللعن ص36.. يقعي32. الثآليل ص154، وأيم الحق ص115. يصعّر خدّه ص209 وغيرها...). يستخدم بعض الألفاظ والتراكيب العامية (اللغة المحكية) وجمله صحيحة التركيب، يعتمد فيها على المحسنات البلاغية الكلاسيكية، ويبدأ جميع قصائده بالتصريع..
- **الصور الشعرية**: صوره الشعرية بسيطة وليست مركبة، فلا تراسل للحواس فيها، ودرجة انزياحها ليست منفرجة، وذلك لأنه "توجد عوامل عديدة ذات تأثير على لغة القصيدة عند حنا إبراهيم من أبرزها: انتماء الشاعر إلى الواقعية الاشتراكية، وقد كان لهذا تأثير على لغة القصيدة، فجاءت مباشرة؛ لتؤدي تأثيرا على الجمهور الذي يتلقاها، ومن المعروف أن قصائد الشاعر في معظمها مهرجانية ولها رسالة واضحة في تحريض الناس". كما يقول د. أبو بكر.[19]

---

[18]. الشاعر د. جمال قعوار في مجلة المواكب. عدد 3و4، لعام 2003، ص16.

[19] أحمد حسن محمود أبو بكر. حنا إبراهيم أديبا. (مخطوطة أطروحة دكتوراه عن جامعة النجاح). نابلس. 2001. ص 111.

– **القصة في شعره**: جميع قصائده طويلة النفس، وبالإضافة إلى كونه يكتب القصة القصيرة، فقد استفاد من درامية القصة في نظمه للقصيدة؛ مما جعلها أكثر تماسكا في وحدتها العضوية والموضوعية وأضفى عليها درامية ما، لأنه حررها من استقلالية البيت الواحد، وزاد عنصرا آخر من عناصر التشويق. وبسبب المبنى القصصي لبعض قصائده برزت ظاهرة التضمين كاستخدام أحرف الربط مثل: الواو والفاء وكلمات ربط التتابع وغيرها. انظر قصائده: أكتوبر أقوى من عنتر ص19، وصية لاجئ ص69، وغيرهما.

– **المعاني**: المعاني واضحة ومباشرة، لإيمانه بأن الأدب سلاح فعال يدافع عن مصلحة الشعب المضطهد، (... كنا نؤمن أن الأدب عليه أن يخدم قضايا الشعب وأنه ليس للترفيه بل للتثقيف والتحريض ضد الظلم وخدمة الاتجاهات اليسارية وخاصة الاشتراكية[20]). شعره لا يعرف الغموض والإبهام؛ لأن هدفه أن يصل الشعب ويفهمه ليتفاعل معه ويتأثر به وبالتالي ليغير من سلوكه نحو ما يهدفه الشاعر، وهذا ما تتطلبه معايير مرحلة ما بعد عام 1948، أقلية فلسطينية أكثرها لا يجيد القراءة والكتابة، وبين ليلة وضحاها فقدت كل شيء، ووقعت تحت حكم عسكري ظالم.

– **عناوين القصائد**: يميل شاعرنا إلى المباشرة، ولهذا يكشف عن فكرة القصيدة الأساسية أو رسالته من خلال العنوان، وأخبرني أنه يكتب العنوان أولا، وذلك بعد أن تختمر فكرة القصيدة، وهذا يعني أنه يبقى مقيدا بدلالة عنوان أحادية الاتجاه في التأويل، ويترك هذا أثرا على القارئ أيضا.

- **البنية النحوية للعنوان**: نادرا ما يستخدم العنوان المكون من دالة واحدة (كلمة) فمن مجموع 92 عنوانا استخدم ثلاثة عناوين من دالة واحدة و16 عنوانا من دالتين، مما يؤكد أنه يميل إلى العناوين الطويلة والتي وصلت في بعض قصائده إلى سبع كلمات وأكثر، والعنوان الطويل لا يوفر مساحة للتأويل؛ لأنه غالبا ما يكون جملة مفيدة مع بعض التوابع الموضحة له. وتدل على المضمون من فكرة مركزية أو قصد أو تحديد المناسبة،

[20] حنا إبراهيم. من مخطوطة بعنوان " شهادة أدبية". كتبها في آذار لعام 2011.

وبالتالي فهي تعكس موقف الكاتب من وظيفة الأدب المقتصرة لدية غالبا، على الإفادة السريعة. جميع العناوين هي جمل اسمية.

- **آلية الحذف في العناوين**: تحدث هذه الآلية فجوة توفر مساحة للتأويل تستدعي فضول القارئ لإغلاقها، فالعنوان المؤلف من دالة واحدة، (إضراب، تقريظ، نشيد)، يكون محايدا غالبا، ويفتح باب التأويل على مصراعيه، ولكن الشاعر نادرا ما يستخدمه، وقليلا ما يستخدم العنوان المكون من كلمتين، ويكون في صياغة الإضافة أو النعت وفي الحالتين ينقصهما الخبر وهذا النقص يثير أسئلة للتأويل (دموع الرجال، أمنا الأرض، استراحة الشاعر، بعد النكبة).

1. **أغراض شعره**: مستمدة في أكثرها من آمال وآلام وتطلعات وتحديات وهموم شعبه في الداخل وفي الشتات. وكذلك مما تعانيه شعوب الأرض المضطهدة على المستوى العربي والعالمي، وللدلالة يكفي أن نذكر بأن عنوان قصيدته الأولى عام 1949 كان "خلق الناس للسعادة لا للحرب".

* **مضامين الرثاء**: نالت قصائد الرثاء لرفاقه الشيوعيين ولأصدقائه ولأقربائه ولأعلام شعبه حصة الأسد في شعره، فقد أثبت 35 قصيدة رثاء في باب خاص باسم المراثي (من مجموع 92 قصيدة) في مجموعته الشعرية الكاملة "صرخة في واد"، ولقد أطلعني على عدة قصائد رثاء كتبها فيما بعد ولم ينشرها بعد. " وقد سار حنا في رثائه للأصدقاء على طريقة الشعراء العرب في الجاهلية، حيث إن الشاعر يذكر صفات المرحوم الحميدة.

* **مضامين الغزل** وحب المرأة: من المثير للانتباه أن شاعرنا لم يكتب في المرأة الحبيبة، فمحبته اقتصرت على شعبه، وكما يقول "لأن قصائدي كلها أشعار محبة ليس لامرأة بعينها، بل لشعبي بشكل خاص وللشعوب عامة، ربما أحببت أناسا وخاصة زعماء لم يحبوا إلا ذواتهم"[21]؛ وعليه فأغراض شعره وطنية نضالية تعبر عن هموم شعبه ولم يعرف الفخر ولا الغزل بالمرأة الجسد، وكما قال أيضا "ولما كنت تزوجت في سن مبكرة

[21] حنا إبراهيم. صرخة في واد. ص5.

ولم أتعرض لما تعرض له قيس أو جميل أو عنترة، فلم يكن لشعر الغزل دور يذكر في إنتاجي، أما وقد عايشت قضية شعبي منذ الثلاثينات متأثرا بوالدي الذي كان من ثوار 1936 فقد أصبح هاجسي ومدار اهتمامي"[22] (المواكب، قعوار، ص7).

وبالتداعي، لقد قرأت له قصيدة مهداة إلى زوجته بعنوان "إلى رفيقة عمري بدلا من هدية العيد"، نشرها في المواكب، ولكنه استبدل عنوانها بـ"لا عودة إلى الفردوس بدون حواء" وأثبتها في مجموعته الكاملة "صرخة في واد". ولهذا التغيير دلالة وأكثر من تأويل.

* **مضمون الفخر**: لم أجد قصيدة واحدة يفخر بها بنفسه أو بعائلته، بل يفخر بحزبه الشيوعي وبثورة أكتوبر وبشعبه، مما يؤكد إنكاره لذاته في سبيل خدمة قضية شعبه، إنها الوطنية الصادقة فقد تماهت في حياته وأدبه.

* **الانتفاضة**: عادة، يشير التأويل إلى المجال أو الموضوع العام وليس إلى الموضوع العيني، إلا إذا كان منصوصا مباشرة في العنوان، وعندما نقرأ القصيدة نتعرف على الموضوع العيني، تناول شاعرنا الانتفاضة وأطفال الحجارة.

* **التناص**: لا وجود لنص مستقل بذاته، "لأن النص الأدبي كالكائن الحي يدخل في شجرة نسب عريقة وممتدة ولأنه لا يأتي من فراغ لا يفضي إلى فراغ"[23]، وعليه فهو نص تداخلت أو تعالقت فيه نصوص أخرى تصريحا أو تلميحا، فالتناص: هو "مفهوم يدل على وجود نص أصلي في مجال الأدب أو النقد أو العلم على علاقة بنصوص أخرى، وإن هذه النصوص قد مارست تأثيرا مباشرا أو غير مباشر على النص الأصلي"[24].

حنا إبراهيم قارئ نهم للتراث الأدبي العربي وخاصة الجاهلي والأموي والعباسي ناهيك عما يتمتع به من ذاكرة خضراء تحتضن مئات الأبيات الشعرية والقصص والمعلومات

[22] ن.م، مجلة المواكب. ص7.

[23] إحسان الديك. التناص الأسطوري في جدارية محمود درويش مجلة المجمع، كلية القاسمي، 2010، ص1.

[24] سمير سعيد حجازي. معجم مصطلحات فروع الأدب المعاصرة ونظريات الحضارة. ص117.

الأدبية والتاريخية والسياسية، وهذه الذاكرة سرعان ما تنهض عندما يستفزها الشاعر بموقفه أو بكتابته فتحضر لتكون في خدمته ، وتؤثر على ما يكتبه بوعيه أو بدون وعيه. والتناص يعكس ثقافة الشاعر ويدل على سعة اطلاعه، وشاعرنا تناصت قصائده مع الشعر العربي من العصر الجاهلي حتى الحاضر، وكذلك مع الديانات واللهجة العامية والتاريخ. سأكتفي بذكر بعض أمثلة التناص دون الشرح، لضيق المجال.

أ- قال المتنبي:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

ويقول شاعرنا في قصيدته أحمد المصري ص206:

إنا هنا فليبصر الأعمى بنا ولتنطقن بحقنا الخرساء

ب- قال إبراهيم طوقان:

أمامك أيها العربي يوم تشيب لهوله سود النواصي

ويقول شاعرنا في قصيدته عتاب أخوي ص81:

أمامك أيها العربي يوم يشيب لهوله شعر الوليد

جـ- **تناص مع الديانتين** المسيحية والإسلامية: لضيق المجال، أكتفي ببعض الإشارات: نسل أبي لهب، لم يولد ولم يلد، محراب، الموت حق، اعتصمنا بحبل الله، سابع سما، تحول الخمرة، الإنجيل، بابا نويل، تلاميذ أصفياء الرسول هابيل وقابيل، لو يبعث المصلوب، حبل يشد على الأعناق من مسد، إلى حديث أبي هريرة أو بلال، صكوك غفران، والناطقين عن الهوى، لما أحال الماء خمرا بل حجرا. وغيرها. قمت بعملية إحصاء فوجدت أن تناصه مع الديانة الإسلامية أكثر منه مع الديانة المسيحية.

د. **تناص مع اللغة المحكية (العامية):** من المفردات أو التراكيب العامية أو الأمثلة الشعبية: غايب فيله ص160. لو هبطت سابع سما عن أرضنا ما نرحل ص114. لا تندهي ص11. ضربتان في الرأس. ما يفسد الدهر لا يصلحه عطار ص258 وغيرها.

– **التفاؤل**: يمتاز شعر حنا إبراهيم بالتفاؤل وبثقته بمستقبل أفضل للعالم، وبأن السلام سيتحقق، ويعود هذا التفاؤل لموقفه الطبقي ولفكره التقدمي العلمي ولانتمائه السياسي الماركسي اللينيني .

– **الارتجال**: هذه الميزة تدل على ما يتمتع به الشاعر من الموهبة الأصيلة، والتمكن من ناصية اللغة، وسعة الاطلاع الثقافي، ومخزون الذاكرة الضخم، ناهيك عن سرعة البديهة وحسن التخلص. وفيما يلي أورد مثالا رواه الشاعر نفسه. في حفل ذكرى الأربعين لوفاة صديقه عضو الكنيست عن الجبهة حنا مويس (من الرامة)، وأثناء إلقائه للقصيدة انتبه أنه لم يتطرق إلى كرسي المرحوم الفارغ، فارتجل بيتين من الشعر ليغطي الموقف، ثم أضافهما إلى نص القصيدة فيما بعد.

وفي الشاغور ران خشوع صمت ولفّ الحزن هامات التلال

وفوق منصة الخطباء حشد ومقعد "رئِس" الرؤساء خال

– **فن الإلقاء الشعري والخطابة**: ليس جميع الشعراء يجيدون إلقاء الشعر، ولهذا قالت العرب "أنشد الشعر". أحيانا كثيرة يسيء الإلقاء السيئ إلى القصيدة الجيدة، وكثيرا ما يغطي الإلقاء الجيد الكثير من عيوب القصيدة السيئة، وشاعرنا ممن يجيدون الإلقاء فهو يلفظ الكلمات بصوته الجهوري الواضح ونطقه السليم والمراعي لمخارج أصوات الحروف وفصاحة لسانه، ويعرف أين يقف ويفصل أو يوصل؟ وأين يكرر وأين يغير درجة صوته؟، لا يتلعثم ولا يأكل الحروف أو يجعلها تتداخل، ولا يتلوى ويتأوه ويفتعل الحركات بيديه وجسمه ورأسه، ولا يقرأ بميكانيكية مملة.

الإجمال: انطلاقا من بعض التوجهات الحداثية في نقد الأدب، قمت بقراءة سيميائية لعناوين قصائد حنا إبراهيم ثم قارنتها مع معطيات نصوصها، فوجدت أنها كثيرا ما تقاطعت وتشابهت معطيات تأويل سيميائية العناوين (الخطية والفنية) تصريحا أو تلميحا، قبل القراءة مع معطيات نصوص القصائد بعد القراءة، وخاصة في المجال (الحقل الدلالي) العام أكثر منه في المجال (الحقل الدلالي الفرعي) العيني. مما يؤكد أهمية وظيفة العنوان كعتبة أولى للنص ومفتاح تأويلي له ومصباح مضيء لعتمة فضائه، فهو وجه النص الذي

يحمل بكثافة شيئا أساسيا منه، يستحق الاهتمام من تحليل واستنتاج كي نستفيد منه في فهم النص. ولقد تبين لي من خلال هذه الدراسة أنه توجد علاقة طردية بين فهم الكاتب لوظيفة الأدب وبين صياغته للعنوان، وما يترتب على ذلك من علاقة هذه الصياغة بالنص؛ فالأديب الذي يرى أن وظيفة الأدب هي الإفادة أكثر من المتعة لا تبتعد عناوين نصوصه كثيرا عن مضامينها وتكون نسبة عالية، كما وجدنا في هذه الدراسة.

ببليوغرافيا

مصادر الإشارات ومصادر عامة أخرى عن حنا إبراهيم

- إبراهيم، حنا. **ذكريات شاب لم يتغرب**. (سيرة ذاتية). عكا: مؤسسة الأسوار، 1988.
- إبراهيم، حنا. **شجرة المعرفة**. (سيرة ذاتية). ط2. عكا: مؤسسة الأسوار، 2000.
- إبراهيم، حنا. **شهادة أدبية**. (ما زالت مخطوطة). البعنة. آذار 2011.
- إبراهيم، حنا. **صرخة في الوادي**. (مختارات من أشعاره). الناصرة: دار النهضة، 2007.
- إبراهيم، حنا. **عود على بدء**. (مقالة ما زالت بخط يده).
- إبراهيم، حنا. من ذكرياتي مع صديقي محمود درويش. جريدة **مع الحدث**. طمره. عدد 28. في 15- 8- 2008 .
- إبراهيم، حنا. **وظلم ذوي القربى أشد مضاضة**. (مقالة ما زالت بخط يده).
- أبو صالح، سيف الدين. **الحركة الأدبية العربية في إسرائيل** (ملحق الاتحاد الثقافي من 1948 – 2000). ج2. حيفا: مجمع اللغة العربية، 2010.
- حجازي، سمير سعيد. **معجم مصطلحات الأدب المعاصر ونظريات الحضارة**. القاهرة: جزيرة الورد. ص 117. (د.ت).
- دحبور، أحمد. البرق المبارك. **مجلة المواكب**. الناصرة. عدد 3و4، 2003.
- سعيد، محمد علي. **مسافر في القطار**. عكا: مكتبة السلام، 1972.
- قطوس، بسام. **سيميائية العنوان**. الأردن- عمان: وزارة الثقافة، 2001.
- قعوار، جمال. لقاء مع الشاعر حنا إبراهيم. **مجلة: المواكب**. ملف تكريمي خاص بالأديب حنا إبراهيم. الناصرة. العدد 3و4 المجلد 9 لعام 2003 .
- منصر، نبيل. **الخطاب الموازي للقصيدة العربية المعاصرة**. د.م: دار توبقال، 2007.

مصادر عامة أخرى عن حنا إبراهيم:

- أبو بكر، أحمد حسن محمود. **حنا إبراهيم أديبا**. (أطروحة الدكتوراة). نابلس: جامعة النجاح، 2001.
- أسدي، جمال. القاص حنا إبراهيم. مقدمة لكتاب: **أب وابن**. (مجموعة قصص مترجمة للإنجليزية ومشتركة مع الكاتب محمد علي سعيد)، أمريكا، نيويورك، دار بيتر لاند، 2009.

- الأسطه، عادل. صورة اليهودي في أدب حنا إبراهيم. من كتابه: **اليهود في الأدب الفلسطيني بين 19 و 1987.** د.م: د.ن، 1992.
- بكري، رفيق. لقاء مع الأديب حنا إبراهيم أحد القادة البارزين في التصدي لمؤامرة الترحيل وظلم الحكم العسكري. في صحيفة **الحقيقة**، كفر ياسيف. 22-5- 2008.
- بلاص، شمعون. **الأدب العربي في ظل الحرب** 1948 - 1973. شفاعمرو: دار المشرق، 1984.
- بولس، حبيب. حنا إبراهيم والهاجس الفلسطيني. من كتابه: **الرحلة الأولى- مقالات في الأدب العربي الفلسطيني الحديث**. الناصرة: بيت الصداقة، 1986.
- بولس، حبيب. **ذاكرة حنا إبراهيم ذاكرة شعب بأكمله. مجلة: المواكب**. الناصرة: عدد 3و4، 2003.
- بولس، حبيب. هواجس يومية لحنا إبراهيم. ضمن كتابه: **الرحلة الثالثة – دراسات نقدية**. الناصرة: دائرة الثقافة العربية في وزارة المعارف والثقافة، 1994 .
- جبارين، محمود. لقاء مع الشاعر: حنا إبراهيم. **العلاقات بين الأحزاب السياسية والأطر الأدبية**. (رسالته لنيل الدرجة الجامعية الأولى)، جامعة حيفا. 1999.
- جسروير، عيريت. **المبنى والمضمون في قصص حنا إبراهيم**. (ماجستير بالعبرية). تل أبيب: جامعة تل أبيب، 1988.
- جنداوي عامر. **القصة القصيرة عند حنا إبراهيم**. (رسالة ماجستير). جامعة سانت بطرسبورغ، 1997.
- حمزة، حسين. توتر اللغة السردية وتقابل القصص في أدب حنا إبراهيم. من كتابه: **صور المرايا**. إصدار منشورات مجلة مواقف، 1999.
- خليل، إبراهيم. أزهار برية. من كتابه: **في القصة والرواية الفلسطينية (نقد أدبي)**. الأردن- عمان: دار ابن رشد للنشر، 1984.
- سعيد، محمد علي. قراءة سيميائية في قصص حنا إبراهيم القصيرة. في جريدة: **مع الحدث**. عدد 66، في 29-8- 2008.
- شاهين، أحمد عمر. **موسوعة كتاب فلسطين في القرن العشرين**. (جزءان)، فلسطين، غزة: المركز القومي للدراسات والتوثيق، 1992.

- شلحت، أنطوان. **على فوهة البركان**. (متابعات نقدية عن الأدب الفلسطيني). د.م: مديرية الثقافة العامة في وزارة الفنون، 1996.
- الصالح، فخري. **القصة الفلسطينية القصيرة في الأرض المحتلة**. د.م: د.ن، 1982.
- طه، محمد علي. حنا إبراهيم بين القصة والتاريخ. من كتاب: **دراسات في الأدب الفلسطيني المحلي**. (يضم مختارات من مجلة الجديد وجريدة الاتحاد)، إعداد: نبيه القاسم. عكا: دار الأسوار، د.ت.
- ظاهر، ناجي. لقاء مع الكاتب حنا إبراهيم. **مجلة الشرق**. شفاعمرو. عدد 2 للسنة 2، لعام 1992.
- عباسي، محمود. **تطور الرواية والقصة القصيرة في الأدب العربي في إسرائيل** 1948-1967. (ترجمة عن العبرية حسين حمزة) د.م: مكتبة كل شيء، 1998.
- علوش، محمد. مع حنا إبراهيم في "أزهار برية". **مجلة المواكب**. الناصرة: عدد 3و4، لعام 2003 .
- عيساوي، سهيل. حنا إبراهيم شاعر مثقل بعروبته في ديوانه صرخة في واد. **موقع المعهد العربي** النتي. 2011.
- غنايم، محمود. **المدار الصعب رحلة القصة الفلسطينية في إسرائيل**. د.م: الكرمل، 1995 .
- القاسم، نبيه. حنا إبراهيم الجوال الذي لا يتوقف. من كتابه: **القصة الفلسطينية في مواجهة حزيران**. شفاعمرو: دار المشرق، 1989.
- قرقطي، فيصل. حنا إبراهيم وذكريات شاب لم يتغرب. **مجلة الأسوار**، عكا: مؤسسة الأسوار. العدد 6 لعام 1990.
- كنفاني، غسان. **الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال** 1948-1968. ط2. د.م: د.ن، 1986.
- موريه، شموئيل وعباسي، محمود. **تراجم وآثار في الأدب العربي في إسرائيل**. القدس: معهد هاري ترومان في الجامعة العبرية، المجلس الشعبي قسم الثقافة العربية، دار المشرق للنشر شفاعمرو. ط3، 1978.